

الثورة اليتيمة.. أكبر من مجرد ذكرى سادسة



من داخل المسجد العمري في درعا القديمة، كانت الانطلاقة الحقيقية لثورة يتيمة فرضت نفسها كحلم يراود شعبًا ظل طيلة أربعة عقود من الزمن يحلم بالتغيير، وما زال يحلم وسيظل كذلك لأن الثورة لا تموت وإن ارتقى روادها إلى تحت التراب أجسادًا، وإلى السماء أرواحًا، هي قدر شعب، بدأت ولن تنتهي بإذن الله إلا حيث أراد الشعب.

الثورة السورية بالمقارنة مع الثورات العربية الأخرى، هي الثورة الوحيدة التي لم تحقق هدفها الأول بإسقاط النظام السوري، وإن كانت قاب قوسين أو أدنى من ذلك

مرت الثورة السورية بمنعطفات ومراحل هي الأكثر صعوبة، بالمقارنة مع الثورات العربية الأخرى، فهي الثورة الوحيدة التي لم تحقق هدفها الأول بإسقاط النظام السوري، وإن كانت قاب قوسين أو أدنى من ذلك، قبل أن تتدخل إيران ومليشيا حزب الله اللبناني لتغيير موازين القوى على الأرض، بعد أن طرق الثوار أبواب دمشق في صيف عام 2012.

على مدى السنوات الماضية، نجد أن الجغرافيا السورية التي كانت ساحة شعبية تضج بالمتظاهرين ضد آل الأسد، أصبحت حاليًا مسرحًا عالميًا لتصفية حسابات دولية وحسابات طائفية وتاريخية وحسابات

وجودية تتعلق بالنظام وإسرائيل وحلف المقاومة والممانعة الإيراني، لكن الضحايا في كل الحسابات هم الشعب السوري، الدم الذي لم يحرك المشاعر الإنسانية بقدر ما حرك شهية الجلاد لسفك مزيد من الدماء بمباركة العالم ودعم الأنظمة العربية.

لم يعد مهماً الحديث عن السيطرة وتقسيم الجغرافيا السورية والدويلات المزعومة والأرض المحتلة من قبل روسيا أو إيران ووكلائها المحليين، فالأرض التي يجري تقسيمها في أقبية المخابرات، يوحدتها الدم الذي يغطي مساحة سوريا من درعا إلى حلب، ومن دير الزور إلى العاصمة دمشق، إنها سورية التي قسّمها الأحياء الطغاة ووحدتها الشهداء الأتقياء.

خاض الشعب مواجهة غير متكافئة مع نظام الأسد وحلفائه الدوليين

في سوريا الثورة كان بارزاً فيها حجم المجازر المرعبة التي نفذها رجال الأمن وقوات الأسد بمنتهى الوحشية في كل أرض يطئون فيها بأقدامهم، فلم يتركوا حياً شهد مظاهرة ثورية إلا ودنسوه ببياداتهم العسكرية، وأوجعوا أهاليه حزناً، وأدموا قلوبهم وجعاً بمذابح يندى لها الجبين وإعدامات ميدانية باستخدام السكاكين والآلات الحادة، لم تستثن طفلاً ولا امرأة، فضلاً عن قصف المنازل وتسويتها بالأرض بمدافع الجيش العربي السوري، كل ذلك لإعادة حاجز الخوف الذي ولى بلا عودة.

خاض الشعب مواجهة غير متكافئة مع نظام الأسد وحلفائه الدوليين، وعاش السوريون في جحيم لم يألفوه من قبل، قتل منهم الآلاف وأصيب واعتقل مثلهم، دمرت منازلهم وشردوا منها، ملايين غادروا الأرض إلى مواطن الغربية واللجوء، كل ما حملوه معهم ذكريات مؤلمة وحنين يعيشون في مخيلتهم كل صباح ويؤرق جفونهم كل مساء.

عانى السوريون من حصار مدنيهم ووقوعهم في بوتقة المجاعة بعد أن أحكم النظام قبضته ومارس التجويع كسلاح، والحصار والحرمان كعقاب مشروع، اضطر الناس معه في غوطة دمشق لأكل لحوم القطط والحمير، بعد اشتداد الحصار عليهم في نوفمبر 2013، واشتد الحصار ليشمل من قتلهم النظام، بعد أن كان مقتصرًا على الأحياء، حتى توالى الأخبار الكارثية القادمة من حلب في نوفمبر 2016، أهالي حلب لا يجدون أكفأ لتكفين شهدائهم، ولا أكياساً لحفظ الجثث في المشافي.

كان من الصعب على ثوار سوريا الاستمرار في خيار سلمي، في مواجهة نظام لا يقيم للسلمية أي وزن في قوانينه

آل الأسد لديهم خبرة في القتل تمتد إلى ما قبل مذبحه حماه الشهيرة في الثمانينيات، لذلك كان من الصعب على ثوار سوريا الاستمرار في خيار سلمي، في مواجهة نظام لا يقيم للسلمية أي وزن في قوانينه، كما أن مضيئه في قرار سحق الثورة، لم يكن ليمر دون ردة فعل، جاءت على هيئة انشغاقات لبعض الضباط وتشكيلات عسكرية طوعية حملت اسم الجيش الحر فيما بعد.

خاض الجيش الحر مواجهات عسكرية مع قوات الأسد، وحقق نجاحاً ميدانياً، وصل إلى أوجه مع إعلانه عملية بركان دمشق، ووصول الاشتباكات إلى أحياء العاصمة، وبعدها بأيام جرت عملية تصفية قيادات أمنية كبرى في اجتماع خلية إدارة الأزمة، وهي عملية تبناها الجيش الحر، بينما رأى البعض أنها مسألة داخلية تتعلق بصراع السلطة وإعادة ترتيب البيت الداخلي المحيط بالأسد ليس إلا.

كثرت المسميات الفصائلية واشتعلت نار الاقتتال وتغلغلت الشحنة في نفوس المجاهدين، وأصبح الملعب السوري لا يتسع لفريقيين فحسب، بل أكثر من ذلك بكثير، بدءاً بإيران وروسيا والمليشيات الأجنبية، ثم التحالف الدولي بمشاركة دول عربية وتلاها روسيا وتركيا، وليس آخرًا الجزائر ومصر، كل ذلك حدث خلال ثلاث سنوات فقط، وكانت النتيجة مأساوية على شعب طالب بالحرية والكرامة في بادئ الأمر، فاستكثروا حقه فيهما وأوصلوا سوريا إلى حيث هي الآن.

طريق الثورة اليتيمة طويل جدًا، ومن زعموا أنهم أصدقاء لها، تبين زيف ادعائهم لاحقًا
طريق الثورة اليتيمة طويل جدًا، ومن زعموا أنهم أصدقاء لها، تبين زيف ادعائهم لاحقًا، اتفق الجميع
على تصنيفها وتصفية الشعب السوري لأنه قرر أن يكون، في زمن لا يسمح فيه بالخروج عما يقرره
المجتمع الدولي، وبرزت من قضية إسقاط الأسد ونظامه، قضايا أخرى، قضايا الإرهاب، والحل السياسي
وقضايا اللاجئين وقضايا المعتقلين والقضية الكردية، وهلم جرا، وهي قضايا فرعية تلتقي عند قصر
الشعب في العاصمة دمشق، هناك يمكن حلها جميعًا، إن قرر النظام ترك القصر للشعب، وترك له
حرية الاختيار.

اليوم وبعد ستة أعوام من الذكرى، قد يتساءل البعض: ماذا لو كان الشعب السوري يعلم بما ستؤول
إليه الأوضاع في البلد، من تدمير لملايين المنازل وقتل لعشرات الآلاف من الأبرياء وتهجير ملايين
المواطنين واعتقال الآلاف في سجون النظام، هل كان سيثور؟

ما يحدث من مأسء على امتداد الأرض السورية، ما هو إلا ثمن لأربعة عقود من الخوف

كثيرة هي التساؤلات وأكثر منها وساوس النفس والشيطان، ولو استسلم الشعب السوري لمآلات
الواقع والمستقبل المجهول، لما أقدم على كسر حاجز الخوف والهتاف بإسقاط النظام، وما يحدث من
مأسء على امتداد الأرض السورية، ما هو إلا ثمن لأربعة عقود من الخوف، كوننا أمام أنظمة عربية، كلما
طالت فترة حكمها، ازدادت تمسكًا بالحكم، ولو كان الثمن غاليًا جدًا، هذا ما يفعله بشار الأسد بحق ما
فعلته به الثورة من دعوة مشروعة للتنحي واحترام إرادة الشعب السوري.